مقالات موضوعية في الفلسفة الماركسية

عائد ماجد

المقدمة

هذا الكتيب هو مجموعة من المقالات التي كتبتها في أوقات متفرقة، وجمعتها هنا في هذا الكتيب لارتباطها جميعًا بالماركسية والفكر المادي، وهي ليست كتابًا منهجيًا كاملاً أو بحثًا يقدم رؤية شاملة لماركس وفلسفته، بل هي دعوة لقراءة ماركس كلّه بعيدًا عن الأيديولوجيا وبعيدًا عن النظرة المشوّهة لماركس التي انتشرت بسبب تطبيق فلسفته في سياقات بيروقراطية أحيانًا.

ماركس، قبل أن يؤسس ويكتب في فلسفته الماركسية، كان ابن الفلسفة متأثرًا بها وبالفلسفة المثالية، فقد قرأ هيغل وفويرباخ ليثور عليهما فيما بعد، ناقدًا المثالية، آتيًا بفلسفة جديدة مبنية على إطار لم تقم عليه الفلسفات السابقة التي سعت إلى تفسير العالم، سعى ماركس إلى تغيير العالم من خلال فلسفة تنظر إلى الواقع وإلى الإنسان والمجتمع. هذه الروح النقدية هي روح ماركس التي

يجب إحياؤها في كل مرة نقرأ ماركس فيها، وهي الطريقة التي نحيي بها فكره بعيدًا عن التقديس الأيديولوجي والجمود الفكري.

هذا الكتيب ليس دعوة لأتباع ماركس أو للتنظير له، بل لبعث روحه النقدية والتحليل، وربط الفلسفة بالواقع بلا تحيز لأي أيديولوجية أو حزب أو منظومة سلطوية.

المحتوى

الفلسفة المثالية بين أفلاطون وبركلي.....٣
الفلسفة المادية من الجذور إلى التفرع ٨
الديالكتيك (الجدل): ١٣
نقد نظرية القيمة عند كارل ماركس..... ١٦
قيمة السلعة: قراءة نقدية ٢٠
الدين عند كارل ماركس ٢٥
قراءة نقدية في الماركسية ٣١
فيلسوف أسده الشيوعيون ٣٦
فيلسوف أفسده الشيوعيون فلسفيًا ٤١
الفروق التطبيقية بين الماركسية واللينينية ٤٦
المادية والتجريبية بين الواقع والتقديس ٥٠

الفلسفة المثالية بين أفلاطون وبركلي

نظرة واحدة منا على التاريخ الغربي كافية بنا لمعرفة أهمية الفلسفة المثالية، فقد كان لها التأثير المهم منذ فجر الفلسفة حتى امتد تأثيرها إلى العصور الحديثة، وربما سيمتد إلى ما هو أبعد؛ فإن للفلسفة المثالية ما لها من تأثير على الفكر الإنساني والفلسفي بشكل عام. وحتى إن للفظ "المثالية" أهمية في التاريخ الفلسفي، ولعبت الدور المهم فيه في أكثر من محور واتجاه.

والفلسفة المثالية بمفهومها العام هي التيار أو الاتجاه الفلسفي الذي يرى أن الواقع الحقيقي هو الواقع العقلي والفكري، ولا يمكن للمادة أن تأتي بمعزل عن الواقع العقلي؛ فهو الواقع المثالي الذي اكتسب هذا الاسم من فلسفة أفلاطون. ومع اختلاف الاتجاهات المثالية، فإنها تتحد في عدة مفاهيم، بل وأساسها هو أسبقية العقل على

المادية، باختلاف الأفكار والتيارات حول هذا المفهوم. لكن كل الاتجاهات المثالية ترى أسبقية العقل على المادة، وأنه الأساس الأول للوجود، والمادة إما أن تكون مشتقة منه أو لا وجود مستقل لها خارجه؛ فهو المكون الأول. وفي نظر المثاليين، الحواس المادية متغيرة وغير ثابتة، فلا يمكن الاعتماد عليها كمصدر معرفة أو مصدر بحث عن الحقيقة، فيكون الفكر أسبق من الشيء. وبعض الكُتاب في الشأن الفلسفي اتخذوا اتجاهًا محددًا فوصفوا كل الاتجاهات الفلسفية التي تنطوي على الشك، أو تنطوي على إيمان بمبدأ غيبي، أو تنطوي على محاولة لإبعاد جانب من الأشياء الموضوعية عن المعرفة الإنسانية، بأنها اتجاهات مثالية، كالروحانية والعقلانية والتجريبية والنقدية كما قالوا، فهي اتجاهات مثالية. (راجع: صـ5 من "ما هي المادية").

ومن الأمور الواضحة الجلية لكل طالب فلسفة أن الفلسفة المثالية وجدناها عند أفلاطون في "المُثُل الأفلاطونية"، لكن إذا قرأنا فلسفة ما قبل سقراط يمكننا ملاحظة الشطحات المثالية في تلك الفلسفات، رغم أنها كانت تميل إلى المادية، لكن هذا لا يمنع وجودها. على سبيل المثال، مبدأ الوحدة خلف التنوع عند هيراقليطس أو عند طاليس، وكذلك وجود العالم غير المحسوس عند فيثاغورس، وحتى عند سقراط في الجدل العقلي. لكن هذه لم تكن إلا شطحات لا يمكن تكوين الفلسفة المثالية من

خلالها. ولكي نفهم الفلسفة المثالية علينا فهم بدايتها، وبأي شكل بدأت.

ونحن نعرف بداية الفلسفة من بادئها الأول وهو أفلاطون، حيث لاحظنا المثالية عنده في نظريته عن الإنسان والعقل والعلم، التي عُرفت بـ"المُثُل الأفلاطونية"، أي أن أفلاطون إذا أردنا أن نصنّفه فهو فيلسوف مثالي. لكن لم تكن كلمة "مثالية" هي ذاتها التي تملك ذات الدلالة اليوم، فهذا غير ممكن؛ فهي لم تكن تعني التخلي عن الإدراكات الحسية، فإن أفلاطون لم يتخلَّ عن هذه الإدراكات، بل أقر بأن الإدراكات العقلية هي التي يمكننا من خلالها إدراك جوهر وحقيقة الأشياء العامة، أي أنها أعلى من الإدراكات الحسية، لكنه لم يتخلَّ عن الإدراكات الحسية ولم يُجرّدها من حقائقها الموضوعية؛ فهو أعطى العقل والواقع الحسي حقَّه، مع تفضيله للعقل، بدون أن يُجرّد الواقع الحسي من حقيقته الموضوعية. وهذا واضح في المُثُل الأفلاطونية. وكلمة "المثالي" لا تعني "عديم العيب" كما في الاستعمالات اليومية؛ فإن المُثُل إن أردت وصفها على سبيل المثال: نحن نعرف الخيول ونعرف أنها مختلفة وغير متشابهة، لكن رغم ذلك نحن نعرف انطباعًا واحدًا ومفهومًا واحدًا عن كل الخيول، وهذا هو "المُثُل"، وهو أعلى من كل الأشكال الأخرى الموجودة، وهو موجود في عالم لا يمكننا الإحساس به بحواسنا المادية. فإن أردنا تعريف أفلاطون، فهو المؤسس الأول لهذه الفلسفة، وامتد تأثيره امتداد المثالية ذاتها إلى قرون بعده، سواء في أفلوطين أو

فلاسفة العصور الوسطى مثل القديس أوغسطين، حتى المثاليين الجدد ككانط وهيغل وديكارت وبركلي.

حتى اتخذت المثالية شكلاً مختلفًا عن شكلها القديم في مُثُل أفلاطون إلى مفهوم مختلف بشكل كبير، فجاءت المثالية بمفهومها الحديث لتزعزع الحقيقة الموضوعية للواقع الحسي. ولا يمكننا المرور على هذا بدون المرور على الممثل الأساسي لهذا الاتجاه، وهو بركلي، الذي يمثل أمام المثالية الحديثة بتعبير العديد من كتّاب الفلسفة وجوهر المثالية عند بركلي يتلخص بقوله المشهور: "الوجود هو ما يُدرك". إن الفيلسوف الإيرلندي جورج بركلي يمثل نقطة التحول الراديكالية في تاريخ الفلسفة المثالية، من المثالية الميتافيزيقية إلى المثالية المطلقة عند هيغل؛ إذ أعلن بركلي هنا نفي وجود المادة ككيان مستقل بذاته. وهذا التحول الراديكالي بكل تأكيد كان بسبب تأثر بركلي بالمناخ الفلسفي آنذاك، خاصة الفلسفة التجريبية للفيلسوف جون لوك، الذي فرض وجود مادة مستقلة قائمة بذاتها، وندركها من خلال الحواس، وهذا ما يؤدي إلى الشك والإلحاد. ومن هنا، وبعد تأثره بالمثاليين من قبله، قدّم بركلي البديل الفلسفي الذي يرفض وجود المادة بشكل مستقل، وهذا ما عُرف بالمثالية الذاتية. وكل هذه المثالية ترتكز على المبدأ الذي قدمه بركلي بقوله: "الوجود هو ما يُدرك"، أي أن كل شيء موجود يتوقف على إدراكه من قبل عقل ما؛ لا وجود لشيء بشكل مستقل، بل في عقولنا كأفكار وإدراكات؛ فكل ما نراه ونسمعه ونحس به هي إدراكات عقلية داخل وعينا.

فعلى سبيل المثال، الكرسي الذي تجلس عليه في غرفة معينة، فإن وجوده ليس شيئًا ماديًا قائمًا بذاته، بل هو مجموعة من الإدراكات: لونه، ملمسه، شكله، صلابته؛ كل تلك إدراكات عقلية، ولا توجد بشكل مادي إلا بعد إدراكها. فأخرج من الغرفة التي فيها الكرسي، هل سيبقى الكرسي موجودًا؟ نعم، لكن فقط لأن الله يدركه.

في فلسفة بركلي، رأى بركلي أن المادة ووجودها بشكل مستقل أمر غير مقرٍّ فلسفيًا؛ فنحن لا ندرك سوى الصفات، مثل الأصوات والروائح والأشكال والألوان، وما إلى ذلك، وما هي إلا إدراكات عقلية داخل عقولنا فقط، فلا يمكن لنا أن ندعي وجود جوهر مادي، ولا يمكننا إدراكه أصلاً.

وإلى هنا يمكننا القول بأن الفلسفة المثالية كان لها التأثير البالغ، منذ عهد أفلاطون إلى العصور الوسطى عند أوغسطين، إلى بركلي، ومن تلاه من الفلاسفة المثاليين، فأسست لنظرية معرفة، وأسست لفلسفة كاملة تُعد من أهم الفلسفات في التاريخ الفلسفي، حتى وصلت إلى مرحلة أن طالب الفلسفة المبتدئ يُصاب بالذهول عندما يعلم أن المثالية والفلسفة ليسا لفظين متقابلين. فإن أراد هذا الطالب تقديم خدمة لنفسه ويحافظ على مساره الفلسفي، فلن يفعل إلا بعد أن يقرأ المثالية قراءة جيدة تليق بحجم تأثيرها.

الفلسفة المادية من الجذور إلى التفرع

لا يمكن لأيّ شخص قرأ التاريخ الفلسفي أن يتجاوز لفظة "المادية" أو يمرّ عليها مرور الكرام، فلهذا اللفظ ما له من الأثر البالغ في الفكر الإنساني في مختلف الحقول، من الاجتماع والسياسة وحتى العلوم الحديثة. وإنّها ممتدّة امتداد لفظة الفلسفة نفسها، فهي ممتدة من الفلسفة اليونانية ما قبل سقراط إلى الآن، وتمّ خلال هذا الامتداد تشكيل مفاهيم وثورات عميقة في الفكر الإنساني.

إنّ الفلسفة المادية، في مفهومها العام، هي الضدّ من الفلسفة المثالية، كما أن المثالية هي الضدّ من المادية، وهي التيار الذي يرى أن المادة هي الأصل الأول للوجود، وليس الوجود عقلياً أو روحياً كما تقول المثالية، بل هو وجود مادي محسوس فيزيائياً ومادياً، يمكننا رؤيته والتأكد منه

بالحواس والتجربة. هنا يتبلور الصراع الفلسفي بين المادية والمثالية، ففي الموقف المثالي ترى المثالية أن حتى العالم هو امتداد للوعي والعقل، بما يناقض الموقف المادي الذي يرى أن حتى الوعي والإدراك ما هو إلا نتيجة لتفاعلات مادية ونتيجة تطور للمادة، أي أن كل شيء في هذا الوجود مادي.

وهذه الفكرة ليست طارئة على الفلسفة، بل نجد أصولها عند الفلاسفة الطبيعيين ما قبل سقراط، وخصوصاً في فلسفات أمثال طاليس، وأناكسيمندر، وأناكسيمينس، الذين بحثوا عن أصل الكون في العناصر. ورغم اختلاف كلٍّ منهم في تحديد تكوين العالم من أيّ عنصر، لكنهم كانوا يفسرون العالم بشكل بعيد عن الأساطير، أي بشكل طبيعي ومادي. فطاليس رأى أن الماء هو مكوّن العالم وأصل كل شيء، وأناكسيمندر قال باللامحدودية، وأناكسيمينس قال إن الهواء هو أصل كل شيء. كلّ ما نلاحظه في رؤيتهم وآرائهم هو أنهم حاولوا تفسير العالم بعدسة مادية، وهذا استمر إلى ديموقريطس الذي بلور أول نظرية ذرية مادية للكون، وقال بأن كل شيء يتكوّن من ذرات (Atoms) ومن الفراغ. لهذا لا يمكننا تجاوز ديموقريطس عند الحديث عن الفلسفة المادية، فهو يعدّ أحد الأعمدة الشامخة التي تقف المادية عليها.

لكن، رغم وجود فكرة المادية في الفلسفة بشكل واضح كما قرأنا، فإنها لم تتبلور إلا عند الثورة العلمية، عندما جاءت هذه الثورة بالتيارات التي رفضت كل الفرضيات الميتافيزيقية لتفسير العالم، وأقرّت بأن العالم خاضع

لقوانين يمكننا تجربتها والتأكد منها، دون وضع عقل كلّي أو مطلق ما ورائي لتفسير هذا العالم الذي يمكننا تفسيره من خلال قوانين علمية يمكننا التحقق منها. وقد ساهم في هذا فلاسفة كبار مثل فرانسيس بيكون، ومن خلال هذا تم تأسيس منهج مادي صارم رافض لكل التفسيرات الميتافيزيقية للعالم.

وتعمّقت المادية في الفلسفة الغربية أكثر عندما نصل إلى الحداثة، حيث تعشّق المنهج التجريبي العلمي في الثقافة الأوروبية والغربية بشكل عام. فوصلنا إلى فلاسفة مثل توماس هوبز، الذي رأى أن الإنسان بحد ذاته مجرد أداة مادية، وأن كل ما فيه من وعيه وإدراكه ما هو إلا نتاج التفاعلات المادية التي تحدث داخل جسده. ثم تطوّرت المادية حتى بلغت أوجها وأوجه الصراع بين المثالية والمادية في الفلسفة الماركسية، وهي التي أعادت صياغة المادية في إطار جدليّ تاريخي، وأصبحت المادية الجدلية أو المادية التاريخية من أبرز مناهج الفلسفة الحديثة. فكارل ماركس تأثّر بشكل كبير بالديالكتيك أو الجدل عند هيجل، رغم أنه كان جدلاً مثالياً، لكن ماركس قلبه من مثالي إلى مادي، وأسس بذلك رؤية ترى أن كل البُنى الفكرية والدينية والسياسية ما هي إلا انعكاسات لبنية مادية واقتصادية أعمق.

عندما وصلنا إلى نقطة تغلغل المادية في الفكر الغربي وفي الفلسفة الحديثة، لا يمكننا تجاهل أوجه الصراع بينها وبين المثالية، خاصة المثالية الألمانية، حيث تمّ انتقادها

بشكل كبير، كون الماديين ينظرون إليها على أنها هروب من الواقع الملموس إلى تصورات عقلية مجردة لا أصل لها. وهذا بسبب اختلاف نظرة الماديين، بحيث إنهم ينظرون إلى الواقع كما هو، لا كما نريد أن نراه.

ومن الأمور التي يجب علينا ملاحظتها أن الفلسفة المادية لعبت دوراً مهمّاً في تطوّر العلوم الحديثة، فهي وافقت المنهج التجريبي وأعطته المشروعية الفلسفية، فكان كل اكتشاف في نظر الماديين هو تأكيد جديد على أن العالم محكوم بقوانين يمكن دراستها والتأكد منها، وليس هناك داعٍ لوضع العلل الغيبية. ولهذا نحن نرى أن أصحاب الثوّرات العلمية من العلماء في كل العالم كانوا متأثرين بالفكر المادي.

ومن الإشكالات الناتجة عن عدم قراءة، يرى الكثير أن المادية ضد القيم تماماً لأنها لا تعترف بغير المادة، وكأنها فلسفة صُنعت لتفقد الإنسان قيمته. وهذه فكرة خاطئة، فحتى الأمور التي تتمثل بالقيم مثل الأخلاق يمكن تفسيرها كنتيجة تفاعلات اجتماعية مادية أو تطورية. هم ضد افتراض علّة تُفرض من الخارج، فهي ليست كما يراها البعض إنكاراً عبثياً لما وراءيات، بل هي تيار فلسفي ينطلق من موقف فلسفي، وموقفها يرفض التسليم بفرضيات ما ورائية بدون أن تخضع للعقل والتجربة بما يمكن أن يثبتها مادياً. فهي بذلك ليست إنكاراً عبثياً.

يمكننا القول بأن الفلسفة المادية كانت ولا تزال أحد أهم التيارات في التاريخ الفلسفي، من طاليس إلى هوبز

وماركس، ومن النزعة الذرية إلى الفلسفة الحديثة والمنهج التجريبي. هي حلقة في سلسلة التاريخ الفلسفي لا يمكن لأيّ شخص يريد قراءة الفلسفة أن يتجاوزها.

الديالكتيك

الجدل بالمعنى الكلاسيكي للكلمة هو طريقة خاصة بالحجاج والمناظرة، تُطرح فيها وجهات نظر متعارضة أو مختلفة، فتظهر كل واحدة عيوب الأخرى حتى يكونوا فكرة أعلى ينتمي إليها الطرفان فيما بعد. وإن الشكل الأكثر كلاسيكية للديالكتيك أو الجدل يمكن رؤيته عند أفلاطون ناقلاً عن سقراط أحيانًا، ففي المحاورات نجد هذا الأسلوب في طريقة النقاش، ويمكن ملاحظة هذا في محاورة مثل محاورة يوثيفرو، حيث اختلف مع سقراط على تعريف التقوى لكنهما اتفقا على تعريف واحد فيما بعد.

أما الجدل بمعناه الحديث فلم يعد أسلوب حوار أو أسلوب تبادل آراء، وتحول لشكله الحديث بعد سبات طويل، خاصة مع هيمنة العصورَ الوسطى على أوروبا، فاختفت هذه الكلمة في الميدان الفلسفي حتى وصلنا إلى

هيغل. هيغل كان أول من يقيم منطقًا كاملاً على أساس الجدل يرتكز على مفهوم الجدل، ولم يبتدع هيغل قواعد الجدل، فإن لهذه الفكرة جذورًا أعمق وأكثر تعقيدًا، لكن الفكرة لم تتبلور وتظهر بشكل منظم إلا عند هيغل، حيث أنشأ هيغل فلسفته المثالية على أساس الديالكتيك وجعله تفسيرًا كافيًا للتاريخ وكل مظاهر الحياة.

إن الجدل بمفهومه العام في المنطق الكلاسيكي كان طريقة حجاج أو نقاش فلسفية تجتمع فيها الأضداد والتناقضات الفكرية في نقاش واحد بين الأطراف المتضادة، وهذا هو الشكل الأكثر كلاسيكية للجدل، حيث يبدأ الحجاج بفكرتين مختلفتين وتبدأ كل واحدة منهما بمنافسة الأخرى، فتتحول إلى مفاهيم أكبر حتى تصل إلى حقيقة موحدة بين الطرفين.

أما الجدل الهيغلي فيعتمد على ثلاث لحظات أساسية:

الأطروحة (Thesis) وهنا تظهر الفكرة بصورة معينة.

النقيض (Antithesis) وهو الطرح المضاد، حيث يظهر من داخل الفكرة نفسها ويحمل داخله تناقضًا يولد المعارضة.

التركيب (Aufhebung) وهذا المصطلح الأكثر تعقيدًا في الجدل الهيغلي، فهو ثلاثي المعنى في وقت واحد:

- الإلغاء (negation): إزالة الشكل القديم.

- الحفظ (preservation): الاحتفاظ بجوهره الإيجابي.
- الرفع (elevation): الارتقاء إلى مستوى أعلى.

وبعد وفاة الفيلسوف هيغل بسنوات عديدة جاء الفيلسوف الألماني الشاب كارل ماركس لقراءة أفكار الفيلسوف هيغل، حيث تأثر بها وبالهيغليين الشباب الذين استعملوا جدل هيغل في إنشاء أفكار ثورية، حتى اتخذ ماركس الاتجاه المادي وأقر بأن هيغل ألبس الجدل الثوب المثالي العقلي.

وماركس لم يختلف في بنية الجدل الحديث مع هيغل، لكنه حوّله إلى المادية بدل المثالية، فعنده الفكر ليس هو الأساس ولا هو المحرك، بل التناقض يحدث في الواقع المادي وفي الاقتصاد كعلاقات الإنتاج وقوة الإنتاج، وفي المجتمع كالأسياد والعبيد، والإقطاعيين والفلاحين، والعمال والبرجوازيين، وفي التاريخ كالنظام الإقطاعي والبرجوازي. بالتالي فإن التاريخ عند ماركس يتطور بسبب التناقضات المادية والاجتماعية.

إذا لاحظنا الجدل بين ماركس وهيغل، سنلاحظ في ظل هذا الصراع بين المادية والمثالية أن حتى هذا الاختلاف بين ماركس وهيغل هو في نفسه جدلي ديالكتيكي.

نقد نظرية القيمة عند كارل ماركس

يعد تحليل كارل ماركس للقيمة وازدواجية العمل النقطة الأساسية للانطلاق في كتاب رأس المال، حيث لم يرد ماركس تحليل آلية السوق وعمل السوق، بل أراد تقديم تحليل كامل للمفاهيم التي تقوم عليها الرأسمالية. وبدأ كل هذا في مجلده الأول من كتاب رأس المال، حيث بدأ كل شيء بتحليل مفهوم قيمة السلعة، لكونها تعد الوحدة الأساسية أو الخلية الأساسية التي تقوم عليها الرأسمالية.

بدأ ماركس كتابه رأس المال بشرح قيمة السلعة، حيث قسمها إلى قيمتين: قيمة استعمالية وقيمة تبادلية. فالقيمة الاستعمالية هي المنفعة أو الفائدة العملية التي تحققها السلعة عندما تُستخدم لإشباع حاجة بشرية، كانت مادية أو معنوية [أنظر: رأس المال صـ54]. وأما القيمة التبادلية فهي ما تساويه السلعة عند مبادلتها بسلع أخرى في السوق. وهنا أمسك ماركس بصفة محددة في الرأسمالية،

وهي إنتاج السلع للتبادل في السوق. وهنا يجيب على تساؤل: ما هو العامل المشترك بين السلع المختلفة الذي يتيح إمكانية مقارنتها في السوق؟ ولا يمكن أن تكون القيمة الاستعمالية، لأن للسلع استعمالات مختلفة، فتبطل إمكانية تبادلها داخل السوق، فالخبز يشبع، والكتاب يعلم، والثوب يدفئ.

ومن هذه النقطة قدم ماركس العامل المشترك لأي شيء ينتجه البشر، وهو مقدار العمل المبذول في إنتاجه. هنا طرح ماركس من داخل مفهوم العمل فهمه لمفهوم ازدواجية العمل، حيث قدم مفهومي العمل الملموس والعمل المجرد، وعلاقة هذه الازدواجية في تحديد القيمة التبادلية للسلع.

واستثنى ماركس العمل الملموس من هذه المعادلة، حيث إن العمل الملموس هو نشاط محدد لإنتاج القيمة الاستعمالية، وليس لإنتاج القيمة التبادلية، مثل خياطة قميص أو خبز الخبز، وما إلى ذلك من إنتاج السلع التي تحقق فائدة عملية. فكيف يمكن مقارنة الأنواع المختلفة من العمل الملموس المبذول في إنتاج السلع؟

وما تبقى لدى ماركس كعامل مشترك لما ينتجه الإنسان وللقيمة التبادلية هو العمل المجرد، والذي يمكن قياسه بوقت العمل الضروري اجتماعياً، أو مقدار الوقت الذي يحتاجه عامل متوسط الإنتاجية لإنتاج سلعة معينة. وهذا غالباً عمل غير ملموس لا يمكننا ملاحظته في السلعة مادياً [أنظر: رأس المال – 2 الطابع المزدوج للعمل الذي تتضمنه البضائع].

بهذا أكون قد شرحت مفهومي القيمة وازدواجية العمل عند ماركس. لكن أوائل الأشياء التي يمكن أن تلاحظها كنقطة ضعف في تحليل ماركس هو إهماله لعوامل تعطي قيمة السلع بشكل آخر، حيث إن ماركس كان يميز بين مفهوم قيمة السلعة المحددة بالعمل وبين السعر الذي يتقلب في الأسواق. فما يمكننا ملاحظته هو أن سعر السلعة يتحدد بشكل أساسي من خلال قوى السوق، لا العمل فقط، مثل العرض والطلب ودوره في تحديد أسعار السلع، وهو أمر لا يمكن التغاضي عنه. فوقت العمل الضروري عند ماركس لا يمكن أن يفسر لوحده لماذا سلعة تباع بأضعاف سلعة أخرى، خصوصاً عندما تدخل عوامل الندرة في السوق والرغبة بالسلعة.

ومن المشاكل الكبرى التي واجهت ماركس هو أنه افترض إمكانية جمع كل أنواع العمل في مفهوم العمل المجرد بوصفه طريقة معيارية، رغم أن هذا الأمر واقعياً معقد جداً ولا يمكن. فكيف يمكن جمع العمل الذي يقوم به العامل في معمل الصلب بعمل المبرمج، أو ربط العمل الفكري بالعمل في الحقول؟ وكان ماركس يزيل كل الفروق بينها رغم الفروق الواضحة.

ووفق نظرية ماركس هنا يجب أن تقل القيمة إذا قل وقت العمل. لكن في حالات كثيرة يمكننا ملاحظتها الآن، بعيداً عن مفهوم العرض والطلب الذي أهمله ماركس، يتبين أن سلعة تُنتج في وقت قصير نسبياً وبدون جهد بشري كبير تباع بأسعار خيالية. أبسط الأمثلة هو اكتشاف

دواء جديد يتم إنتاجه عن طريق تكنولوجيا حديثة سريعة جداً في الإنتاج، رغم ذلك نجد أن سعر الدواء غال لأنه نادر، ولا يمكن تفسير هذا إلا وفق مبدأ العرض والطَّلب الذي أهمله ماركس، أو لأنه محمي ببراءة اختراع.

إن قوة ماركس هنا تكمن في قدرته على تحليل أن حتى السلعة ليست شيئاً بريئاً أو يخلو من التناقضات بين الاستعمال والتبادل، وبين العمل الملموس والعمل المجرد. لكن ضعفه يقع في نفس التحليل بسبب تعميمه لهذا التحليل، جاعلاً للعمل الوحدة الأساسية في تحليل القيمة، متجاهلاً العوامل الأخرى. لكن لا يمكننا إنكار أن مفهوم القيمة وازدواجية العمل عند ماركس يعد إنجازاً نظرياً كبيراً في نقد الرأسمالية.

قيمة السلعة:
قراءة نقدية بين الماركسية والليبرالية

في العام الماضي نشرت مقالةً بعنوان "نقد نظرية القيمة عند كارل ماركس"، كتبتُها بعد قضاء وقت طويل في تأمل نظرية القيمة الماركسية التي كانت ردًّا على الليبرالية ونظرية القيمة في السوق الرأسمالي. حيث بدأ كتابه، منذ الفصل الأول، بشرح قيمة السلع، ولا أعني أي كتاب، بل أعظم ما كتبه في المال، وهو كتاب "رأس المال" في المجلد الأول، الذي جمعه ونشره بالكامل بيده وهو حيٌّ. ويُعد كتاب "رأس المال" أحد أهم الكتب الاقتصادية في التاريخ، والذي ترك بصمته الواضحة في الاقتصاد والتحليل الاقتصادي.

عندما نلاحظ أنه بدأ بقيمة السلعة، كيف يمكن لنا أن نتجاهل هذا ونحن نعلم أن الاقتصاد يقوم على التبادل

والإنتاج؟ فليس من العجيب أن نجد قيمة السلعة في بداية المشروع الماركسي. وهنا يطرح السؤال نفسه، بعيدًا عن كارل ماركس: ما هي القيمة؟ وكيف يمكن لنا أن نحدد قيمة السلعة؟ وكيف يمكن لنا قياس هذه القيمة والتعامل على أساسها؟

وبما أننا بدأنا بماركس، يجب أن نبدأ التحليل من داخل الماركسية. فالقيمة في الفلسفة الماركسية تعتمد اعتمادًا كليًّا على العمل، أي إن القيمة هي "القيمة بالعمل". وقسَّم قيمة السلعة إلى قسمين أساسيين: هما "القيمة الاستعمالية" و"القيمة التبادلية". فالقيمة الاستعمالية هي القيمة الفعلية التي تتحقق من تلبية حاجة، مادية كانت أو معنوية؛ فالكتاب يُعلِّم، والقميص يُلبس، والخبز يُؤكل، وهذه هي القيمة الاستعمالية. أما القيمة التبادلية فهي ما تساويه السلعة عند مبادلتها بسلعة أخرى في السوق.

وهنا نعود إلى مفهوم العمل: فما هو العامل المشترك الذي يمكن لنا من خلاله مبادلة السلع داخل السوق؟ بكل تأكيد لن تكون القيمة الاستعمالية، لأن القيمة الاستعمالية مختلفة من سلعة إلى أخرى؛ لذلك يعطي ماركس الأولوية للعمل المبذول في إنتاج السلعة. وهنا يقسم ماركس العمل المبذول إلى نوعين فيما يعبر عنه بـ"ازدواجية العمل"، حيث قدَّم مفهوم "العمل الملموس" و"العمل المجرد". فالعمل الملموس له علاقة بالقيمة الاستعمالية للسلع، حيث يمكن لنا ملاحظة العمل في السلعة خارجيًّا؛ فيمكننا ملاحظة أن الخبز يُخبز، والكتاب يُكتب. أما العمل المجرد فهو العمل

الذي يتيح لنا القيمة التبادلية، التي يمكن لنا من خلالها مقارنة السلع في السوق، وهذا العمل المجرد هو الوقت الذي يمكن من خلاله إنتاج هذه السلعة، أو مقدار العمل المبذول في وقت محدد لإنتاج السلع.

وهنا يظهرً لنا تمييز ماركس بين القيمة التي يمكن تحديدها للسلعة وبين السعر الذي يحدده السوق؛ ولذلك نطلق على نظرية ماركس "نظرية القيمة بالعمل"، حيث جعل العمل الواضع الأساسي لهذه القيمة، وغضّ البصر عن التفاوت في العمل؛ فساعة عامل المصنع ليست كساعة الجراح، وساعة الحلاق ليست كساعة المبرمج. وكذلك لم ينظر إلى مبدأ الرغبة والندرة، أو مبدأ العرض والطلب.

فعلى فرض أن أحدهم قضى سبع سنوات في صناعة ساعة يد، فهل يمكن أن تكون هناك قيمة لهذه الساعة ما لم يرغب أحد بها؟ ولم ينظر أيضًا إلى عامل الندرة؛ فعلى سبيل المثال، لدينا كيلوغرام كامل من الفحم، وكيلوغرام كامل من الألماس؛ سيكون سعر كيلوغرام الفحم رخيصًا فعلاً، لكن سعر كيلوغرام الألماس سيكون بسعر فلكي. لكن لو كان هذا الألماس غير مرغوب، هل سيكون للألماس قيمة أساسًا؟

ومن هنا سيكون مدخلنا إلى نظرية القيمة الليبرالية، التي لا تعترف بالعمل أساسًا لتحديد سعر السلع وقيمتها في السوق، بل على أساس الرغبة. فهي تنظر إلى السوق ككيانٍ حرٍ قادرٍ على أن يدير نفسه دون أي شروط، ما دامت حرية الاختيار مكفولة للجميع. وهذه مشكلة النظرة

الليبرالية؛ إذ تنظر إلى السوق بوصفه فضاءً محايدًا، رغم أن السوق في واقع الأمر مكانٌ مليءٌ بعدم التكافؤ. فهي لا تنظر إلى من يملك رأس المال ومن يملك العمل والوقت فقط؛ لذلك هي غير قادرة على شرح لماذا يقبل بعض الناس شروطًا مجحفة من السوق.

وهذا ما أدّى بالضرورة إلى اختزال القيمة في الرغبة فقط، ولا تضع بعين الاعتبار أن القيمة ذاتها تُنتج من قبل أصحاب رؤوس الأموال، أو غيرهم ممن هم قادرون على إدارة السوق. فالرغبة ذاتها يمكن تحديدها بامتلاك القدرة على تسيير السوق؛ فيمكن لي، بامتلاك رأس المال الكافي، أن أغيِّر توجه السوق نحو سلع مختلفة دون سلع أخرى، بل أستطيع من خلال الدعايةً أن أغيِّر اهتمامً الأشخاص، بل واهتمام أصحاب رؤوس الأموال.

والرغبة ذاتها ستخلِّف لنا فرقًا طبقيًّا كبيرًا بين الناس وبعضهم في المجتمع؛ فستكون لدينا طبقة تمتلك المال والرغبة لشراء الرغبات، ولدينا طبقة أخرى لا تمتلك المال الكافي لتوفير الرغبات، وتسعى لتوفير الحاجات التي تحتاجها فقط. وبذلك هي مجبرة على العمل لإنتاج السلع التي هي مجرد رغبات بالنسبة إلى الطبقة المستهلكة. ولذلك فإن النظرة الليبرالية توسِّع مبدأ الاستهلاك والإنتاج على أساس الفرق الطبقي؛ فستكون لدينا طبقة من العمال، وطبقة أخرى من المستهلكين، دون أن تنظر هذه الأخيرة إلى العمال.

هذا مع ظلم السوق الذي يستمر في وضع هذه الفروق. وهكذا نحن نلاحظ كلاً من "نظرية القيمة بالعمل" و"نظرية القيمة بالرغبة"؛ فنجد الأولى تتجه نحو العدالة بشكل يختزل الواقع في العمل، فترى أن العامل الكادح يجب أنَّ تكون قيمة سلعته مساوية للجهد الذي بذله فيها، وهذا ليس ضرورةً كونية، وبنفس الوقت حلَّلت كل الجوانب من جانب واحد، مما عزز هذا الاختزال. ونجد الأخرى، "نظرية القَّيمة بالرغبة"، تعطي حرية الاختيار دون النظر إلى ما هو وراء الاختيار، فتختزل هذا الجانب أيضًا، وبهذه النظرة تنظر إلى السوق ككيان محايد لا علاقة له بالظلم، وأن للكل الحق في الاختيار، لكنها لا تنظر إلى من يملك القدرة على تسيير الاختيارات.

الدين عند كارل ماركس

كارل ماركس لم يتناول الدين بشكل منفصل عن القضايا الأخرى التي تدور في المجتمع، فقد تناول الدين مع تلك الأفكار. ولا يمكننا إنكار رأي ماركس عن الدين، فهو غير مؤمن به كونه فيلسوفًا ماديًا، لكن ما أضاف التعقيد لرأي ماركس عن الدين هو أنه لم يتناول الدين بمعزل عن الأفكار، فيضعه مع الأفكار التي تقودها السلطة التي ينتقدها تارة، ونجده يصف الدين بأنه ضمنيًا يعد رفضًا لواقع بائس. فلا يمكننا حسم موقفه على رأي مطلق، لأنه كان ماديًا غير مؤمن، وبنفس الوقت لم يكن من دعاة الإلحاد آنذاك. وبشكل عام يمكننا تقسيم موقف ماركس عن الدين إلى قسمين:

أولاً: الدين في ذاته. نقرأ في مقالة "نقد فلسفة الحق عند هيغل 1844" لكارل ماركس:

"إن التعاسة الدينية هي، في شطر منها، تعبير عن التعاسة الواقعية، وهي من جهة أخرى احتجاج على التعاسة الواقعية. الدين زفرة الإنسان المسحوق، روح عالم لا قلب له، كما أنه روح الظروف الاجتماعية التي طرد منها الروح. إنه أفيون الشعب. إن إلغاء الدين، من حيث هو سعادة وهمية للشعب، هو ما يتطلبه صنع سعادته الفعلية. إن تطلب تخلي الشعب عن الوهم حول وضعه هو تطلب التخلي عن وضع بحاجة إلى وهم. فنقد الدين هو بداية نقد وادي الدموع الذي يؤلف الدين هالته العليا". [نقد فلسفة الحق عند هيغل]

هنا يعبر ماركس عن أن التعاسة الدينية تظهر بسبب المعاناة من الواقع في المجتمع من ظلم واستبداد، فالناس يتجهون إلى الدين ليعبروا عن معاناتهم. لكنه في الوقت نفسه ليس استسلامًا بل أيضًا احتجاج غير مباشر؛ لأن الإنسان حين يشكو إلى الله، فهو يعترف ضمنًا بأن واقعه ظالم ومجحف.

الدين هنا في حياة الفرد أشبه بنفس يعزيه في عالم قاسٍ بلا قلب، لا معنى له خارج عيني الفرد داخل هذا الدينً. وماركس لا يرى أن إلغاء الدين هي القفزة التي يجب تحقيقها، بقدر ما هو مؤمن بأن إلغاء هذا الواقع الطبقي سيؤدي إلى إلغاء هذا الدين بشكل تلقائي، لأنه يعد سعادة وهمية غير حقيقية تنسي الناس تعاسة الواقع.

وما نحتاجه عند ماركس هو السعادة الحقيقية من خلال تغيير الواقع البائس؛ فالدين مثل الأفيون يخدر ويسكن الألم، لكنه لا يعالجه، وما يريده ماركس هو معالجة الألم.

خارج محور الدين في ذاته غالبًا ما يتم استخدام هذا النص لماركس لمحاولة التوفيق في بعض الشعوب المتدينة بين الدين والماركسية، وهذا فهم خاطئ لقول ماركس. فهو هنا لا يقبل الدين ولو بشكل ضمني، إنما يضع يده على ماهية الدين في حياة الفرد. فلا يمكننا أخذ هذا النص كموافقة على الدين داخل الفلسفة الماركسية التي تعد فلسفة مادية غير مؤمنة بأي وجود خارج عالم المادة. وفي هذا المحور لم يقم ماركس بأي شيء غير وضع يده على الدين وتحليله كماهية في حياة الفرد. لكن عندما ينظر ماركس إلى الدين كفكرة في المجتمع، فهذا ينقلنا إلى المحور الثاني.

ثانيًا: الدين كفكرة للسلطة. نقرأ في كتاب "الأيديولوجية الألمانية" لكارل ماركس وفريدريك إنجلز:

"إن أفكار الطبقة السائدة هي في كل عصر الأفكار السائدة أيضًا، يعني أن الطبقة التي هي القوة المادية السائدة في المجتمع، هي في الوقت ذاته القوة الفكرية".

[الأيديولوجية الألمانية، صـ56]

في مناطق أخرى نجد ماركس يتحدث عن أنواع الوعي، آخذًا الدين معها أيضًا، كما في قوله:

"إن هذا التصور للتاريخ يتوقف على قدرتنا على توسيع عملية الإنتاج العملية، منطلقين من الإنتاج المادي

للحياة بالذات، أنه يدرك شكل التعامل المرتبط بهذا النمط من الإنتاج والمكون من قبله - يعني المجتمع المدني في مراحله المتنوعة - على اعتباره أساس التاريخ برمته، الأمر الذي يستقيم في إظهار هذا المجتمع في عمله من حيث هو الدولة، وكذلك في تفسير جميع المنتجات النظرية وأشكال الوعي المختلفة من دين وفلسفة وأخلاق، والخ". [الأيديولوجية الألمانية، صـ49 - 50]

في هذا المحور يمكننا أخذ الدين بوجهه الآخر عند كارل ماركس، وهو الدين كفكرة في المجتمع بحال كان فكرة للطبقة السائدة. هنا يكون الدين أداة للطبقة السائدة بما يدعم مصالحها، كونها ستكون المسيطرة على الإنتاج الفكري بما فيه من فلسفة ودين وأخلاق، وما إلى ذلك من النتاج الفكري. وهذا ما قد يؤخذ في بعض الأطر كتناقض عند كارل ماركس بين الدين في ذاته، كما بينا فيما سبق، وبين الدين كفكرة. وكل طرف يجر الحوار بما يدعم مصالحه من الفلسفة الماركسية، فنجد المتدين يجر الحوار لنفسه في تعريف الدين عند ماركس، ونجد الملحد يجر الحوار لصالحه في ذم الدين كونه أداة بيد الطبقة الحاكمة. وكلتا الحالتين اختزال سطحي لهذه المفاهيم، وكلا الرأيين يحتمل النقد بعدة أوجه. وأستطيع تقسيم النقد إلى قسمين:

نقد المفهوم عند المتدين: بالنسبة للمتدين، فنحن نجد عنده محاولة لتوفيق الفلسفة الماركسية التي لا تؤمن بوجود خارج المادة مع الدين، وهذه معضلة فكرية، لأنك

تكسر أسس الفلسفة بمحاولة التوفيق بينهما. ويتم أخذ تعريف ماركس للدين على أنه موافقة على الدين في الفلسفة الماركسية، وهذا لم يحصل، لأن ماركس ناقش ماهية الدين، وهذا لا يعني أنه مدافع عنه، لأنه ذم الدين في نفس النص واصفًا إياه بالسعادة الوهمية التي يجب التخلص منها بإقامة سعادة حقيقية من خلال تغيير الواقع. فلو كان ماركس مدافعًا فعلاً، لوجدنا ماركس الواعظ، لا ماركس الفيلسوف المادي الذي ينتقد الدين في أوجه عديدة.

نقد المفهوم عند الملحد: في هذا الوجه غالبًا نجد المتصدي هو الملحد الأيديولوجي الذي يأخذ رأي ماركس عن الدين بأنه الرفض والذم وعدم القبول التام بما يوافق متبنيات الإلحاد الأيديولوجي الذي يأخذ به هو. وفي هذه الحالة أيضًا، هذا لا يعد رأيًا دقيقًا.

لأننا وكما نعلم أن ماركس سيكون ضد الدين كسعادة وهمية، وضد الدين إذا كان جزءًا من أفكار الطبقة الحاكمة، الذي سيكون في هذه الحالة أداة استبداد بيدها. ولا توجد ضرورة تجعل الدين من أفكار الطبقة السائدة في كل عصر. لذا فإن محاولة الذم على هذا الأساس مبنية على افتراض غير مبرر، وهو أن الدين يجب أن يكون جزءًا من أفكار الطبقة الحاكمة.

وإذا أردنا تلخيص رأي ماركس بهذا الشأن، فإن ماركس كان ماديًا لا يمكن أن نراه مدافعًا عن الدين، وهذا أمر لا نقاش فيه. وماركس بنفس الوقت ليس الملحد

الأيديولوجي الذي يبني نقده ورأيه على افتراض غير مبرر. فماركس هو الرافض للسعادة الوهمية، فلا يمكن جر ماركس إلى ساحة القبول أو ساحة الناقم.

قراءة نقدية في النظرية الماركسية

كارل ماركس، الرجل العظيم الذي يُعدّ من أعظم العقول تأثيرًا على الفكر البشري بشكل عام، وهذا ما لا يمكن أن نختلف فيه. وما لا يمكننا الاختلاف فيه أيضًا هو أن نظرية ماركس كانت أكثر النظريات الاشتراكية شهرةً وإثارةً للجدل في الوقت نفسه، وراحت بعد ذلك بعقود بالانهيار عن قيادة قطب كامل على فرض أن هذا القطب طبقها كما هي وانهارت الدول التي قامت على الماركسية اللينينية واحدةً تلو الأخرى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

ويمكن لنا العودة إلى سبب الانهيار، وكان السبب الأساسي فيها اضمحلال الاقتصاد وجموده إلى درجة كبيرة في النظام الاشتراكي السوفيتي، الذي كان جامدًا إلى حدٍّ كبير، بنفس حجم ترويجه للأفكار الماركسية والكتب الماركسية، في الوقت الذي لم يكن فيه يطبق هذه النظرية

بالشكل الموجود في كتابات ماركس، بل بشكل يناسب الواقع. والحقيقة أن الاتحاد السوفيتي نجح في هذا إلى درجة كبيرة.

فما هي نظرية ماركس في نظرتها للواقع، وللعالم، ولتحليل الواقع والعالم والصراع والاقتصاد؟ تقوم نظرية ماركس بالدرجة الأولى على المنهج المادي، وقدّمها ماركس على أنها نظرية علمية بالدرجة الأولى؛ لذا سنتناولها على أساس كونها نظرية علمية. وما لا يمكن لنا أن نغفله أن ماركس حاول أن "يُعلم" التاريخ - إن صح التعبير - وأن يجعل التاريخ علمًا كالطبيعة، يمكن قياسه والتنبؤ بأحداثه كما نستنتج الأنماط في الرياضيات والفيزياء

وكل هذا يحدث بمبدأ الديالكتيك (الجدل)، حيث تمتلك كل فكرة نقيضها داخلها، ثم تنتقل إلى حقيقة تجمع بينهما. وهذا المبدأ بحد ذاته مختلف عن المنهج العلمي، الذي لا ينكر مبدأ عدم التناقض ولا يراه قانونًا شكليًا؛ فالمنهج العلمي قائم أصلاً على استبدال الحقائق التي ثبت عدم صحتها بأخرى أكثر منها صحةً ودقة، أي على الخطأ والتصحيح بشكل تراكمي، لا بالطريقة الديالكتيكية.

ومن هنا نرى أن نظرية ماركس زادت على ذلك التنبؤ والاستنتاج، فوضع التاريخ على أنه علم كالفيزياء وغيرها من العلوم، يعني أننا قادرون على قياسه وحسابه والتنبؤ بما سيحدث. ولأن التاريخ ليس علمًا في ذاته، وجدنا أن ماركس أخطأ في كل تنبؤاته تقريبًا؛ فهو قال إن التاريخ حتمي ويسير بحتمية، وقام ماركس بمعرفة هذا عن "علم

التاريخ" من خلال دراسة الصراع الطبقي وحركته. فالشيوعية هنا ليست نظرية نقبلها أو نرفضها، بل حقيقة ستحدث شئنا أم أبينا.

وهذا ينطلق من تحليل ماركس للطبقات، حيث قال إن الطبقات سوف تنحصر بطبقتين فقط. وفي الوقت الحالي، القول إنها طبقتان فقط أمر غاية في البساطة؛ فنحن نرى اليوم الفنيين والمهن المختلفة وغيرهم ممن جاء بهم التطور. وحتى إن قبلنا أنهم تابعون لطبقة معينة، فإن درجات هذه الطبقة مختلفة تمامًا وأكثر تعقيدًا من هذه البساطة في التحليل الماركسي، الذي قام على أساس الرأسمالية في عصره.

تنبأ ماركس بأن الشيوعية ستقوم في نظام رأسمالي كامل متطور، وكانت أكثر هذه الأنظمة تطورًا في إنجلترا وألمانيا، لكن الثورة الاشتراكية - أو الشيوعية، إن صحت تسميتها بذلك - قامت في روسيا، البلد الزراعي المتخلف، فتلتها الثورة الصينية، والصين دولة أخرى أكثر تخلفًا، إضافةً إلى دول أخرى، جميعها لم تكن تحمل شروط تحقيق تنبؤات ماركس.

وتنبأ ماركس بأن الرأسمالية ستنهار، وتقوم الاشتراكية كبديل لها لتقيم المجتمع الشيوعي. وعلينا الآن الحديث بشكل مختلف لكي ننصف ماركس؛ فإنه قال هذا عن رأسمالية عصره، رأسمالية "اليد الخفية" وعدم التدخل المطلق بأي شأن من شؤون السوق، وهي انهارت فعلاً، لكن لم تحل محلها الاشتراكية، بل رأسمالية أقل من

السابقة توحشًا، يكون فيها بعض التدخل لضبط السوق ومنع الاحتكار بدرجة معينة.

إن فكرة حتمية التاريخ التي سعى ماركس لبناء نظريته "العلمية" كاملةً عليها لم تكن سوى فكرة بعيدة كل البعد عن العلم الحقيقي أو العلم التجريبي؛ فكما نعرف، فإن العلم التجريبي يهتم بوضع فرضية وإقامة النظرية عليها من خلال الطرق والأدلة التجريبية، وهذا ما لم نجده موجودًا عند ماركس.

فالحتمية التاريخية فكرة قديمة جدًا منذ عصر أفلاطون، وهي كذلك عند اليهود والتنبؤ لشعب الله المختار، وعند هيغل، الأستاذ المؤثر جدًا على ماركس، فبصمة هيغل واضحة إلى درجة كبيرة في فكر ماركس.

وإذا لاحظنا الشيوعيين اليوم بأحزابهم المختلفة، فهم تركوا نظرية ماركس بمعناها ومبادئها في كتب ماركس، والتزموا بجانبها الأخلاقي في إقامة دولة اشتراكية؛ فقد ترى العديد من الشيوعيين اليوم لم يقرأوا نظرية ماركس، أو حتى غير مؤمنين بها. فتراهم اليوم في أوروبا مثلاً أقرب إلى الاشتراكية الفابية، وحتى في بعض أنحاء الوطن العربي، مثل الحزب الشيوعي العراقي، يتخذ مسارًا أقرب إلى الاشتراكية الفابية.

وفي الصين، حيث يحكم الحزب الشيوعي الصيني، الذي يقال إنه قائم على الماركسية اللينينية، لكنه حتى على ماركسية لينين، التي صاغها وعدلها بما يناسب وقته وبلده، غريب عن هذه الماركسية اللينينية أيضًا؛ فهي تتبع

نظامًا يمكن تسميته بالماركسية المحدثة، والفرق بينها وبين مبادئ ماركس واضح جدًا من خلال ملاحظة الاقتصاد الصيني ونظام الصين.

تقع عظمة ماركس في فكره النقدي؛ فهو، مع فشله في نظريته، كان ناقدًا ممتازًا من الدرجة الأولى، ورجلاً حائزًا على شهادة الدكتوراه في الفلسفة، وهو رجل في غاية الذكاء والأخلاقية. فمشروع ماركس الفكري مختلف عن جانبه في النشاط والنضال، حيث له عدة كتب وعدة منشورات سعى فيها للمطالبة بحقوق العمال والمسحوقين، بل إن حقوق العمال والمسحوقين التي نراها اليوم في الدول التي كانت رأسمالية بشكل عنيف في يوم من الأيام، يعود الفضل الأساسي في وضع هذه الحقوق لماركس.

فالروح التي يجب أن نحييها لماركس هي روحه النقدية، لا لبس نظريته واتباع أي فكرة تقول بالاشتراكية وإلصاق صفة "الماركسية" بها، التي لا يمكن أن تحدث في الواقع. فقد كان ماركس ناقدًا حتى لذاته، ومحبًا كثيرًا لتصحيح أفكاره، فكان يتأخر في الكتابة لأنه ما إن يكتب شيئًا يعود إليه ليصححه مجددًا، لأنه لم يعد معتقدًا به.

وما بالك بجزء كبير من تراث ماركس الذي نُشر بعد وفاته، وأنا متأكد أن ماركس كان قادرًا على تعديل نظريته لو حصل على وقت كاف لإعادة قراءتها. وسيبقى جانب ماركس الأخلاقي أعظم مًا جاء به الفكر الاشتراكي؛ فهو أعظم عقل تحليلي ونقدي جاء من الاشتراكيين.

كارل ماركس فيلسوف أفسده الشيوعيون

الفيلسوف العظيم كارل ماركس لم يكن منظرًا سياسيًا في المقام الأول، بل كان أحد الفلاسفة الذين اهتموا بوضع أيديهم على مواضع الألم الإنساني، وتستطيع ملاحظة ذلك من خلال نقده للأنظمة الاقتصادية، بحيث أنه كان مؤمنًا بأن العالم يجب أن يكون أكثر عدلاً.

إن قرأت مؤلفات هذا الفيلسوف، ستجد أنه كان مفكرًا متمردًا على كل القيود، ودعني أعبّر عن ذلك بالقول إنه كان يريد تحطيم كل تلك الأصنام. والمفارقة أن الذين حملوا رايته من بعده، حوّلوه من هذا المفكر ذي الروح النقدية إلى إحدى الأيقونات التي لا يمكن المساس بها، بل إلى صنم كتلك التي سعى لتحطيمها.

بدايةً، لم يكن ماركس في حياته الفكرية منظرًا سياسيًا، بل كان في بدايته أحد تلاميذ هيجل، وكان آنذاك

تائهًا في دروب المثالية، حتى خلع تلك العباءة ليرتدي عباءته التي اشتهر بها، وهي المادية التاريخية. وهنا بدأ ينقد كل شيء يراه ذا عيب إن صحّ التعبير.

إذا قرأت مؤلفات ماركس مثل (مخطوطات 1844) أو ما يسمى "المخطوطات الاقتصادية الفلسفية"، فستجده يتحدث عن المفاهيم التي دعا إليها، لا بدافع دعم السلطة، بل لأجل الإنسان.

أما ما فعله الشيوعيون فيما بعد بكارل ماركس وبفكره، فلم يكن تجديدًا أو إحياءً له، بل كان بمعنى الكلمة تحنيطًا له، وتحويله إلى أيديولوجيا كتلك التي كان ينتقدها. وبالسياق التاريخي، دعونا نأخذ الجيل الأول من زعماء الفترة السوفيتية، والمتمثلين بفلاديمير لينين وجوزيف ستالين. فلينين لم يقرأ كارل ماركس كفيلسوف ومفكر، بل قرأه كمنظّر لثورة سياسية، واختزل مشروع كارل ماركس بالكامل بفكرة ديكتاتورية البروليتاريا. أما ستالين، فقد قتل ماركس الفيلسوف، بحيث حوله إلى أيقونة بيروقراطية اشتراكية قاتلة.

بإمكانك ملاحظة ذلك من خلال مقارنة بين ماركس كما هو، وبين ماركس الذي صوّره الاتحاد السوفيتي؛ فهذا الأخير أيقونة وشعار لنظام دولة بيروقراطي، والأول دعا إلى الحرية والعدالة. فبرأيك، أين هي الحرية والعدالة التي دعا لها ماركس داخل النظام السوفيتي؟

وصار نقد كارل ماركس للنظام الرأسمالي مبررًا للأنظمة البيروقراطية القمعية، وأُغلقت المصانع بوجه

العمال، لا لتحريرهم، بل لربطهم بحزب الدولة الأوحد أو إله الدولة الأوحد، وصار البروليتاريا لا يملكون أي شيء، حتى صوت الاعتراض داخل هذا النظام القمعي. إذًا، أين هو نقد كارل ماركس للسلطة؟ أين هي أحلام كارل ماركس بالعدالة والحرية وإزالة القهر الإنساني؟ نعم، لقد دُفنت تحت أكوام من التقارير الحزبية والخطب الديكتاتورية.

الآن، تخيل معي لو أن كارل ماركس عاش خلال الفترة السوفيتية أو عاصرها كنظام سياسي اقتصادي، برأيك، ماذا كان سيفعل؟ سوف ينتقدها بشدة، كما انتقد برجوازية عصره. ماذا كان سيفعل لو رأى المعسكرات التي كانت تُعذّب الناس بحجة تحريرهم؟ ماذا كان سيفعل لو رأى الأسلاك الشائكة التي وُضعت فوق الجدران الخرسانية التي بُنيت باسمه؟ ماذا كان سيفعل لو وجد اسمه أيقونة للاستبداد الفكري والرقابة على الفكر؟

أنا أحد الشخصيات التي رأت كارل ماركس في بداية حياتهم كما أظهره الشيوعيون، لكنني أدركت بعد ذلك كم هو مختلف. بإمكاننا جميعًا معرفة كارل ماركس من جديد من خلال قراءته مجددًا بعيدًا عن أفواه الشيوعيين.

إعادة قراءته كإنسان، لا كأيقونة لا يمكن المساس بها.

إعادة قراءته كماركس المفكر، لا كماركس الحزب.

إعادة قراءته بالمنظور الفلسفي، لا بالمنظور الأيديولوجي.

وبذلك نُعيد هذا الفيلسوف الذي ظُلم إلى مكانه كمفكر دافع عن الحرية، لا كأيقونة للأحزاب الشمولية البيروقراطية.

كارل ماركس فيلسوف أفسده الشيوعيون فلسفياً

قبل مدة ليست بالبعيدة، قبل أشهر من الآن، كتبتُ مقالةً انتقدتُ فيها الأيقونة الماركسية اجتماعيًّا من نواحٍ عديدة، ومسستُ من بعيد أماكن التحريف لفكر كارلٍ ماركس. كانت المقالة بعنوانٍ مباشر، فكان عنوانها: "كارل ماركس فيلسوف أفسده الشيوعيون". حصلت هذه المقالة على العديد من الردود من قبل الإخوة، بعضهم قابل بعض المقالة بالتأييد، وبعضهم قابل بعضها بالرفض، وبعضهم قابل المقالة بالكامل بالرفض التام، وكما وصفها أحدهم: "هراء في هراء لا علاقة لها بفكر ماركس الحقيقي".

فبعد أن رأيتُ دخول بعض الإخوة إلى ساحة الفكر، كان يجب أن أتدخل بمقالة تمس الفلسفة الماركسية ولا تمس الإيديولوجيا اللينينية، فهناك فرق بينهما، وسأُبينّ فيما يلي أين يقع هذا الفرق.

وبدايةً، لا يمكننا تجاهل أحد أهم النقاط التي غيّرها لينين في فلسفة ماركس، وهي تحويلها إلى إيديولوجيا نضالية بعد أن كانت فكرة فلسفية نظرية كما طرحها ماركس في مؤلفاته. بل ولماركس كتاب ينتقد فيه الشيوعية اللينينية بشكل واضح، رغم أنها جاءت بعده، وهذا في كتابه "الأيديولوجيا الألمانية"، لأن ما قدمه من انتقاد لفكرة الإيديولوجيا ينطبق بالحرف على الإيديولوجيا اللينينية. وبإمكان كل من يريد معرفة هذا أن يذهب لأحد مواقع الشيوعيين التي تنشر مؤلفات ماركس بشكل ملفات إلكترونية بدون علم منهم بأنها تمس الإيديولوجيا اللينينية فعلى كل من يريد معرفة كيف نقد ماركس الإيديولوجيا أن يشرع في قراءة هذا المؤلف.

ولنعد إلى أفكار ماركس. فكل من قرأ أفكار ماركس يعلم أن ماركس قدم مفهوم الديالكتيك الذي استقاه من هيغل، لكن حوّله من مثالي إلى مادي، فقدم المفهوم على أن التناقضات في المجتمع والصراع بين الطبقات، وأثر المادة من اقتصاد وحال سياسي، يؤدي إلى حركة التاريخ. وهذا ما حوّله لينين بشكل كامل، حيث ألغى مفهوم الوعي الطبقي لكي يحتكر الوعي الطبقي في إيديولوجيا ونخبة الحزب الشيوعي لكي يمثل كل الوعي الطبقي. هذا ما أدى إلى تحول الديالكتيك إلى إيديولوجيا، وليس أداة فهم للواقع، بل وحوّل الديالكتيك إلى إيديولوجيا تمثل الدولة وتعاملاتها الرسمية. ومع وجود طبقة الحكم الحزبِ السياسي الذي وضعه لينين كالقائد للأمة الماركسية، وُضِعَ

مفهوم يسمى "دكتاتورية البروليتاريا"، التي يمثلها الحزب الشيوعي الحاكم. بذلك، تكون السلطة المطلقة بيد هذا الحزب، ليُلغي الوعي الطبقي، فأصبح كل شيء يدور حول الحزب. ولا أحتاج لشرح كيف حدث هذا، فإن التجربة السوفييتية موجودة لكي نفهم منها كيف حدث هذا، وكيف تم إلغاء الرأي والفكر والجدل تمامًا داخل الاتحاد السوفييتي "اللينيني"، بحيث إن الطبقة التي كان مُقدّرًا لها أن تحكم، وهي "البروليتاريا"، أُلغي فيها الرأي أيضًا.

وأحد التناقضات الجلية النظرية في اللينينية هو أننا يجب أن نحرر الإنسان من قيوده ونتخلص من الظلم ونبسط العدل، كما دعا ماركس. بعيدًا عن ما حدث فعلاً في الاتحاد السوفييتي، فهذه فكرة غبية إن تم تطبيقها بمفهوم لينين، لأنه حرفيًّا لم يُلغِ الطبقات، بل وضع طبقة فوق طبقة. أي أن موقفه لم يكن إنسانيًّا ببادئ الأمر حسب هذه الفكرة، بل بمن تقع عليه الظلامة. ماركس أشار إلى إلغاء الطبقية، وليس إلى دكتاتورية الطبقة المظلومة حاليًّا على الطبقة الظالمة، فتنعكس الأدوار فيهما، بعد فتحتاج الطبقة المظلومة الظالمة سابقًا إلى "لينين رأسمالي" لكي يحررها، ولا حل غير هذا الحل.

وتم على إثرِ كل ما دعا له لينين من تناقضات، أن رأينا انتقادًا لاذعًا لها فيما بعد من فلاسفة كبار، أمثال الفيلسوف الكبير هربرت ماركوز، في كتب له مثل: "الماركسية، الثورة واليوتوبيا".

فلو فرضنا أن ما قدمه لينين هو ما قاله ماركس فعلاً، رغم التحريف الواضح، فإن ماركس الفيلسوف العبقري بمعنى الكلمة، صاحب إحدى أكبر الأفكار النظرية الفاشلة في تأريخ البشرية. لكن الواقع هو أن ماركس لم يكن صاحب هذه النظرية الفاشلة، بل لينين كان صاحبها، ونجد إلى اليوم من يستميت لها على أنها فكرة ماركس، رغم أنها ليست فكرة ماركس، وليست فكرة ناجحة، بل أثبتت فشلها على مدار ما زاد عن قرن من الزمن، بدول دكتاتورية عسكرية يحكمها حزب واحد، لا يوجد فيها جدال طبقي، لأن من يحكم كل الطبقات طبقة أعلى، وهي الحزب، وتدّعي بأنها تمثل طبقة البروليتاريا. وأدّت هذه الأحزاب إلى فشل بكل المقاييس، بدءاً من الاقتصاد إلى تطبيق ما ادعوا أنهم يريدون تطبيقه. أساس وضع كارل ماركس لفكرته هو إنهاء الطبقات، لا أنها الحرية، بل ما أراده ماركس هو الحرية، التي لو طلبها بقلمه النقدي داخل الاتحاد السوفييتي "العملاق الماركسي"، لتم قمعه، وقمع من يتكلم بعده بنفس أسلوبه النقدي. وهذا هو الاختلاف الجوهري: لينين جرّم النقد، بينما كان النقد أساس ظهور فكرة ماركس التي حرفها لينين، فتحولت فكرة لينين كما وصفها ماركوز من وسيلة لتحرير الإنسان إلى وسيلة حكم دكتاتورية فاشلة تهلك الدول.

فتحول ماركس من فيلسوف إلى أيقونة إيديولوجية بعيدة كل البعد عن فلسفته. فلم يمت فكر كارل ماركس

على الورق، فهو موجود، لكن من حملوا صورته على أنه أيقونة قمع، دفنوه حيًا.

الفروق التطبيقية بين الماركسية واللينينية

كارل ماركس أحد أكثر الفلاسفة تأثيراً في تاريخ البشرية وتاريخ الفلسفة والسياسة والاقتصاد، لكن ما يجب علينا الاتفاق عليه هو أن ماركس فيلسوف سيئ السمعة. فإن لهذا الفيلسوف نسختين أو صورتين: الأولى وهي الواضحة للناس والتي عُرف بها، وهي صورة كارل ماركس زعيم الشيوعية، الأب الروحي للاتحاد السوفيتي ولكل العمال في العالم، وهي الصورة التي رسمها له فلاديمير لينين شخصياً، والصورة الأخرى هي صورة ماركس الحقيقية التي كتبها في كتبه هو، وبإمكاننا رؤيتها رغم أن هذه الصورة قُتلت من قبل الصورة الرائجة، فاختُصر ماركس عند الناس في شيء واحد وهو الشيوعية اللينينية، وهي مختلفة جداً عن شيوعية ماركس الحقيقية.

وهذا تبين كثيراً إبان فترة الاتحاد السوفيتي وانتشار الأحزاب الشيوعية في العالم، فهي فصلت ماركس الفيلسوف عن ماركس، وأخذت صورته ليكون أيقونة حزبية. على سبيل المثال، أثناء تنظير اللينينيين لشيوعيتهم لم يشرحوا للعامل البسيط أو الفلاح الديالكتيك المادي الذي بُنيت عليه الشيوعية عند ماركس، فيقولون له: "نريد أن نساوي بين الغني والفقير"، لأنه غالباً لن يتوافق مع ديانته المادية لماركس، ناهيك عن تحوير لينين للكثير من المفاهيم حيث إنه غيّر الشيوعية إلى شيوعية أخرى تماماً لم نسمع بها عند ماركس.

ولحسن الحظ لدينا مثال تطبيقي عن الشيوعية اللينينية، ولدينا النص النظري للشيوعية عند ماركس، وسوف أُبينّ ما الفروق الواضحة من ناحية تطبيق النظرية بين النظرية الأصلية عند ماركس وبين اللينينية.

ولنبدأ بشيوعية ماركس. تخيّل معي أن هناك مصنعاً فيه عمال ومدراء. المدراء يأمرون العمال ولا يعملون، ويأخذون دخولاً أعلى من رواتب العمال. هنا لدينا طبقتان: طبقة عاملة متمثلة بالعمال، وطبقة حاكمة متمثلة بالمدراء. حتى ثار العمال على المدراء طالبين الماركسية داخل المصنع. سوف يبدأ كل شيء بسيطرة العمال على العمل وإنهاء سلطة المدراء على المصنع، وكل القرارات التي ستُتخذ داخل المصنع سوف تُتخذ ديمقراطياً بموافقة جميع من هم في المصنع، فتتساوى دخول جميع منهم في المصنع. هنا اختفت الطبقات، فلا مدراء ولا عمال بعد الآن.

الجميع يعمل والجميع يأخذ. هنا يفقد المصنع حاجته لما يسمى بالإدارة، ولنقل يفقد الشعب حاجته للدولة، فكل شيء أصبح يسير تلقائياً في المجتمع الشيوعي. وهذا باختصار ما قاله ماركس عن الشيوعية، بداية من ثورة البروليتاريا إلى آخر مرحلة وهي الأناركية.

ولنقارنها مع اللينينية التي تم تطبيقها في الاتحاد السوفيتي. ومن الجدير بالذكر أن الفيلسوف هربرت ماركوز عرف كيف يفككها، فقال أيضاً إنها إفساد لفكر كارل ماركس، ونقل له من فكر إنساني إلى أيديولوجيا حزبية.

ولنبدأ بهذه المقارنة بين اللينينية والشيوعية الماركسية. علينا أن نفرض نفس الفرض السابق الذي أقمناه قبل قليل. تخيّل أن هناك مصنعاً فيه عمال ومدراء. المدراء يأمرون العمال ولا يعملون، ويأخذون دخولاً أعلى من دخول العمال. هنا لدينا طبقتان: عاملة وهم العمال، وحاكمة وهم المدراء. وثار العمال على المدراء. هنا العمال سوف يعطون كل القدرة لنخبة، أو لنقل إنهم "النخبة"، وهذه النخبة عملت الطرفين بنفس الطريقة مع وجود أفضلية لها، فأصبحت الآمر الناهي والحاكم الوحيد. القرارات تُتخذ من النخبة فقط، كل شيء بيد النخبة. وبعد هذه المرحلة نحن نعرف سياسة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي فجُمد النظام هنا حتى وصل إلى انهيار على يد هذه النخبة في الاتحاد السوفيتي. فلم يصل أبداً

إلى الأناركية التي يخدم فيها الشعب التأسيس الشيوعي كما شرحه ماركس.

فما فعله لينين في الاتحاد السوفيتي هو تحجيم لإرادة الشعوب، وإعطاء كل شيء بيد حزب مؤدلج يُقال إنه يمثل العمال. وهذا كان محاولة لإنهاء الصراع الطبقي لا من خلال إنهاء الطبقات، بل من خلال وضع طبقة أخرى أعلى تضع رقابتها على الطبقات الأخرى، مختصرين ومختزلين كل هذا بثورة دكتاتورية البروليتاريا، ظناً من "النخبة" أن ماركس أراد استبدال ظلم الرأسماليين بظلم الكادحين.

ماركس كان يدرك أن الصراع الطبقي هو محرّك التاريخ، لكنه لم يدعُ قط إلى استبدال طبقة بأخرى، بل إلى إلغاء وجود الطبقات ذاتها. وهنا يكمن الفرق الجوهري بين الفلسفة الإنسانية عند ماركس والأيديولوجيا السلطوية عند لينين.

فلاديمير لينين:
المادية والتجريبية بين الواقع والتقديس

كتاب «المادية والمنهج النقدي التجريبي» من الكتب المهمة جدًا لفلاديمير لينين، وهو كتاب أنظر له شخصيًا كوثيقة تاريخية تبيّن كيفية تعامل المادية الكلاسيكية مع التطورات الفكرية والعلمية، ويُعد كتابًا تحليليًا منهجيًا من الطراز الأول. لكن المشكلة التي لا يمكن أن تفارق الكتاب، والمفكرين الذين لهم أسماء لامعة في التاريخ، هي الوصول بهم إلى حدّ التقديس في مناطق عديدة. فمن الآراء التقديسية التي قرأت عن هذا الكتاب أنه تصدّر التطورات العلمية وكان مدافعًا عن المادية.

بعد قراءة كاملة للكتاب لاحقًا، اتضح أن الكتاب مختلف عن فقاعة التقديس التي تحيط به؛ فالكتاب لم

يكن مطوّرًا لنظرية ماركس كما يزعم الكثيرون، بل أشك في أن الكاتب حاول أصلاً أن يكتب الكتاب لهذا الغرض. فلا يمكن لأي شخص قرأ هذا الكتاب بتمعّن أن لا يلاحظ أن الكتاب كُتب لا لتطوير نظرية ماركس، بل لحراسة مفهوم المادة السائد آنذاك؛ فقد استشرس لينين في الدفاع عن نظرته المادية، وهذا ما نراه جليًا في الفصل الثاني من الكتاب: «نظرية المعرفة في المذهب النقدي التجريبي وفي المادية الديالكتيكية»، حتى وصل بهذا الدفاع إلى حد رفضه لتطور الإبستيمولوجيا الحديثة؛ لأنه نظر لها كإنكار للواقع الخارجي.

ونستطيع أن نضع حملاً كبيرًا من هذا الخطأ على الزمان الذي عاش فيه لينين، لكن لا يمكن أن نبرّئه من الحمل الآخر؛ حيث إنه تطرف في دفاعه حتى رأى الإبستيمولوجيا الحديثة انزلاقًا نحو المثالية، رغم أن لا شيء يبرّر هذه النظرة غير تمسكه بالنظرة القديمة، إضافة إلى رفضه نسبية المعرفة في العلم، فرأى هذا القول على حدّ المساواة مع قوله إن الحقيقة الموضوعية غير موجودة. وهذا الخطأ أيضًا لا يمكننا تحميله بالكامل على لينين، لكن الخطأ الذي يُعد أكبر من غيره هو نظرته للنظرية العلمية، حيث يراها مرآة للواقع، على خلاف العلم الذي ينظر لها على أنها نموذج للواقع.

وأنا، في الفصلين الأول والثاني، أرفع تركيز لينين على هذه الجوانب، ونجد أن التوتر مع الثورة العلمية يبلغ ذروته في الفصل الخامس؛ حيث كانت الفيزياء تشهد ثورة كبرى

مع اكتشاف الإلكترون وغيرها من المنعطفات. تعامل لينين مع هذه المنعطفات بعقلية الرافض، وهي العقلية التي لا يمكن لها أن تُنصف العلم، فنلاحظ كثيرًا في الكتاب كم رفض لينين بعض الأمور على أساس محاربة المثالية.

أقل ما يمكن قوله عن هذا الكتاب أنه مهم تاريخيًا ورائع من الناحية الجدلية، وهو كتاب غني بالكثير، وحتى في المواضع التي أخطأ بها الكتاب لا يمكنني تحميل عبء الخطأ كاملاً على الكاتب بسبب الفترة الزمنية التي كُتب بها هذا الكتاب. فإن دلّ هذا على شيء، فهو يدل على أن هذا الكتاب ليس كتابًا مقدسًا، ولا تعني كتابة لينين له عصمته من الخطأ، بل هو كتاب عادي، ولينين مفكر كأي مفكر آخر.